ثقافة الوصولية

رزح الفرد في مجتمعاتنا تحت ضغوطات مختلفة المصدر والشكل والتأثير، فمن ضغط الاستعمار لمئات السنين وما جلبه من امتهان للكرامة والقهر والاستبداد، إلى ضغط لقمة العيش والصراع اليومي من أجل الحصول على الحد الأدنى مما يقيم الأود، إلى ضغط الجهل المستفحل واسع الانتشار، والذي طال مختلف الطبقات الاجتماعية.

تحت هذا الكم الهائل من الضغط طور جزء من المجتمع الشامي آليات دفاع الهدف منها الحد منه والتقليل من شدته. ولقد تجلى بعض هذه الآليات بالهروب إلى الماضي والتاريخ لاستمداد بعض القوة التي فقدها الفرد، واستجداء كرامته التي هدرت من أعلام مضيئة ملأت التاريخ عزة وفخاراً، بتداول قصصها ومآثرها ناشداً من كل ذلك توازناً من نوع ما يحفظ عليه ما تبقى من شخصيته وكيانه.

أما وسيلة الدفاع الأخرى فهي الوصولية، وهي وسيلة يمكن للفرد أن ينتهجها في أي مجتمع يقع تحت الضغط، وبالسيرورة الطبيعية ستتحول مع الوقت إلى ثقافة قائمة بذاتها. وخروجاً من التعميم فإن جزءاً من المجتمع تبنى تلك الثقافة فانعكست بشكل صارخ على الأمثال الشعبية، ومع مرور الوقت باتت الحبل السري والنسغ الذي غذى بعض الأفراد جيلاً بعد جيل، وبات ينتج أشخاصاً قد تشوهت بنيتهم السيكولوجية وانحرفت بوصلتهم الذاتية؛ فباتوا هيئات أشخاص يقتنصون الفرص متى سنحت، وينقضون على الغنائم مهما كان الثمن، وباتت المكيافيللية هي الدافع وراء تصرفات الأفراد لتحقيق مبتغاهم، قيل:

"**الإيد يلي بتحتاجها بوسها وادعي عليها بالكسر**" وتبنوا ثقافة:

"**من أين تؤكل الكتف**"، ومبدأ: "**يلِّي بياكل من بيت السلطان بقاتل بسيفو**".

قال الشاعر:

فلا خير في ود امرئ متلون إذا الريح مالت مال حيث تميل

إن تداعيات الفضيلة، والانزياح الخلقي، وتقهقر الثقافة، مع مسببات الفقر بأشكاله المختلفة لأي مجتمع، سوف تنعكس على بعض أفراده بالوصولية، فضلاً عن تضاؤل البعد الديني الإنساني من خلال الفهم الخاطئ للدين والتشكيك برجال الدين، وذلك في مرحلة من مراحل البيئة الشامية.

قيل: "**تحت اللفِّة قرود ملتفِّة**".

وقيل عن رجال الدين: "**ضراع شاش ودقن ببلاش**"، ووصف رجل الدين بـ: "**شيخ سلتة**" (أي يلبي دعوات الزواج والخطبة والموت بكثرة).

مما يعكس انعدام الثقة بالدين وحملته والاتكال التام على مدى براعة الفرد في الوصول إلى ما يريد.

وفي ظل تلك الظروف يصبح المقياس الذي يقيس علاقات الأفراد بعضهم ببعض هو المدى المنفعي الذي يعطيه أحدهما للآخر، وتصبح قيمة الشخص هي فيما يحققه للشخص الآخر، وإذا بالإنسان ينظر إلى أهدافه من خلال الخطوط المستقيمة المختصرة، ويحققها بالطرائق الملتوية وثقافة الالتفاف والكذب والرياء.

ماسبق ذكره تؤيده الأقوال الكثيرة والأمثال وما يجري على الألسن من عبارات، وهو يعكس تماماً طريقة تفكير البعض، وإن كان البعض الآخر قد يردد هذه الأقوال دون ربط إيديولوجي حقيقي.

قيل: "**شو إلو بالمرض؟ قال: تلتين الغرض**" (تلتين هي ثلثي، والغرض هنا أي المصلحة".

وقيل: "**يلي إلو راس عند الرواس ما بنام الليل**".

وقيل: "**اليوم مرِّئني وبكرا غرِّقني**" (مرئني هي بمعنى المرور).

وقيل: "**ربي أسألك نفسي**".

وقيل: "**بدو قط خشب يصطاد ما ياكل**".

وقيل: "**إن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب**".

وقيل: "**يلي بيحتاج الكلب بقلّلو حج كلب**".

وقيل: "**شعرة من الخنزير مكسب**".

لقد تضاءل حجم الفرد وتناهى وتماهى مع الأقوى والأغنى، وأنتج ذلك ثقافة طلب ود القوي بأي ثمن، ونشد الفرد السلامة بعرض قليل، وتفشت ثقافة جلد النفس وكبت القدرات لتحقيق موازين شخصية من المنافع بأقل جهد ممكن وأضأل حظ من الضرر.

قيل مثلاً: "**العين ما بتعلى عن الحاجب**".

وقيل: "**كرمال عين تكرم مرج عيون**" (كرمال أي كرمى لفلان).

وفي التزلف للأقوى قيل: "**نحنا عروة بقميصك**"، أو: "**أنا من إيدك هي لإيدك هي**"، أو: " **سيدي إنت فصِّل وأنا بلبس**".

أبناء الوصولية

لم تكتف ثقافة الوصولية بذاتها؛ بل ولَّدت ثقافات أخرى لم تكن أقل ضرراً منها، فقد كانت الرشوة الابن البار للوصولية، وهي أخبث الثقافات التي ما إن تدخل مجتمعاً ما حتى ينخره السوس ويثخنه العفن وتفسد فيه الأنفس والذمم.

قيل: "**طعمي التم تستحي العين**"، أو قيل: "**الدراهم مراهم**"، أو قيل أيضاً: "**إيدو بدها تزييت**"، أو قيل: "**إيدو فيها غره ما بتمشي إلا بكره**"

obeikandl.com

(الغره هو الغراء أو اللاصق، والكره هي الرشوة)، أو قيل: "**نفع صاحبك شيء ما يضرك**"، أو قيل: "**حكلِّي لحكلَّك**".

وأما توءم الرشوة فكان الأنانية تجاه الأشخاص واتجاه المجتمع بشكل عام. فالعالم يتوقف عند أبواب البيوت، وصار ما هو داخلها محور الاهتمام، واختُصر العالم بأسرة وبيت. صحيح أن التكافل الاجتماعي لم يعدم وسائله ولم يضيع طريقه بين الأفراد، لكن إذا جد الجد فإن العالم ينتهي عند الأسرة، الحلقة الأصغر في المجتمع. لم تساو مثلاً النظرة الاجتماعية بين الابن وبين أبناء الآخرين، قيل:

"**إبنك يلي مو من صلبك كل ما جنّ فرحلو**" (فرحلو يقصد بها افرح له).

فإن قرعت أجراس الخطر قيل: "**أنا ومن بعدي الطوفان**".

وقيل: "**شجرتي بداري بتحل إلي ولّا لجاري**".

وقيل: "**فخَّار يكسِّر بعضو**".

وقيل: "**عليّ وعلى أعدائي**".

وقيل: "**من بعد عمري ما ينبت حشيش**".

وابن الوصولية الثالث كان الاستئثار، والاستيلاء على أي شيء يمكن الحصول عليه من دون جهد أو تعب أو دفع مال، قيل: "**شو أطيب من العسل قيل: خلّ ببلاش**" (ببلاش أي دون مقابل مادي).

وقيل: "**إن ما نفع ما بضر**".

وقيل: "**يلي بفوتك حصرم بتاكلو عنب**".

وقيل: "**استكبرها ولو كانت مرَّة**".

obeikandl.com

الوجه المشرق

لم تخف عن المجتمع تصرفات كهذه، ولم يغب عنه الانتباه لأشخاص كهؤلاء، فأضاءت الأمثال على عبثية هذه الأفعال فقيل: "**يا مسترخص اللحمة عند المرقة تندم**" (المرقة هي مرق اللحم).

وقيل: "**شغل البلاش لاش**" (أي هباء).

وقيل: "**يلي بيستنى سكبة جارو بنام جوعان**" (بيستنى أي ينتظر، والسكبة هي الهدية من الطعام).

لم تطل الوصولية بأذرعها المجتمع بأكمله، بل كان فيه الخير والإيثار ومحبة الغير، ولم يغفل المجتمع عن الوصوليين فكان يعرفهم ويكشفهم ويصفهم بإسهاب، فوصف الوصولي بأنه:

"**متل السوسة بالخشب**".

وقيل فيه: "**متل المنشار طالع آكل نازل آكل**".

وقيل عنه: "**بدو اللقمة معلوكة**".

أما المرأة الوصولية فوصفت بأنها: "**فايتة مع أم العروس طالعة مع أم العريس**".

فإن أثقل الوصولي على شخص ما قيل عنه: "**لبسني وإجا على قدِّي**" (قدِّي أي قياسي).

وقيل عنه في كذبه وخداعه وبيعه للكلام دون حساب: "**بوديك على البحر وبرجعك عطشان**" (بوديك أي يأخذك).

فإن كان يتمسح بالآخرين ويسعى لرزقه دون عمل قيل عنه: "**أكل ومرعى وقلّة صنعة**"، أو: "**بحب التعليقة**"، أو: "**شانق الكيس**".

ووصفت شراهته بالقول: "**بياكل البيضة والتأشيرة**" (التأشيرة هي قشرة البيضة دليل على الجشع).

وقيل عنه في تسلله للحصول على مأربه: "**حج برمبو ياستَّار كان بالعتبة صار بالدَّار سكتنالو فات بحمارو**"، أو قيل: "**فات متل عبر بخنص**".

فإن أمطر شخصاً ما بمعسول الكلام قيل: "**عم يمسِّح جوخ**"، أو: "**عم يدهن زبدة**".

وإن استأثر بموقف ما قيل: "**إجا من البريّة وبدُّو ياخد الأوليّة**".

وحتى في أفضل حالاته حين يحاول إعطاء شيء ما للآخرين يقال: "**جحا جابها وجحا أكلها**"، أو قيل: "**لو فيه خير ما رماه الطير**".

ووصف أيضا بـ "**العنزة الجربانة بتشرب من راس النبعة**".

أما أعماله فوصفت بـ "**حكِّلّي لحكِّلَّك**" فلا يعطي شيئاً إلا ويأخذ مقابله شيئاً أكبر منه.

وفي تذبذبه قيل: "**متل حربايّة ورجيني بختي كل ساعة لون**" (بختي أي حظي)، أو: "**متل الصيصاني لا مسلم ولا نصراني**"، وإن أراد أن يظهر كرماً كاذباً فإنه يفعله على ظهور الآخرين، وقيل في ذلك: "**ياضربتي من غير كيسي**".

لقد تمسك معظم أفراد المجتمع الشامي بنزعة الأنفة والكرامة، فالحر هو الذي لا يستجدي منافعه عند الأقوى بعرض زائل، يقول الشافعي:

لقلع ضرس وضرب حبس ... ونزع نفس ورد أمس
وقر برد وقود فرد ... ودبغ جلد بغير شمس
وأكل ضب وصيد دب ... وصرف حب بأرض خرس
وبيع خف وعدم إلف ... وضرب إلف بجبل قلس
ونفخ نار وحمل عار ... وبيع دار بربع فلس

أهــون مــن وقــفــة الــحــر يــرجــو نــوالاً بــبــاب نحــس

إن الوصولية لم تكن أبداً وسيلة المجتمع الشامي بكليته، بل كانت سلاح ضعاف النفوس مهزوزي الثقة بالذات، من يركبون الموج لتحصيل مآربهم ويشترون الغالي بالرخيص.

opeikandl.com